



خطبة صلاة الجمعة 25/1/2013 للشيخ الطبيب حمد حير السعدي، في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكي

www.dr-shaal.com

(هدي النبي صلى الله عليه وسلم عند الشدائد والمحن -2-)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خيرُ نبي اجتبا، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإيائي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

[الحشر: 7]

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

[آل عمران: 31]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كلُّ أُمِّي يدخلون الجنة إلا من أبي، فقالوا: يا رسول الله من أبي؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبي» [أخرجه البخاري].

روى الترمذي وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، كأنَّ الشَّمْسَ تجري في وجهه).

وعن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال: قلت للرُّبَيْع بنت معوذ: صفي لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: (يا بني، لو رأيته لرأيت الشمس طالعة). [الطبراني في الكبير والبيهقي في الدلائل]

جاء في مكتوبات الشيخ سعيد النورسي: (إنَّ اتِّباع السُّنَّةِ المطهَّرة هو طريق الولاية الكبرى، وهو طريق ورثة النبوة من الصَّحابة الكرام والسَّلف الصالح).

وأخرج البخاري في صحيحه في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، عن أبي برزة رضي الله عنه قال: (إن الله يغنيكم بالإسلام وبمحمد صلى الله عليه وسلم).

أيها الإخوة:

بمناسبة دخول شهر ربيع الأول شهر ولادة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أحببت أن أخطب فيكم خطباً أربعاً تتحدث عن هدي النبي صلى الله عليه وسلم في الشدائد والأزمات، لنقتفي أثره ولنمشي على هداه، وأحسن الهدى هدي محمد صلى الله عليه وسلم، هذا أولاً. ولنكثر من الصلاة والسلام عليه ثانياً؛ فإن صلاتنا معروضة عليه -صلوات ربي وسلامه عليه-.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي»** [أخرجه أبو داود والنسائي]

عنوان الخطبة:

(هدي النبي صلى الله عليه وسلم عند الشدائد والمحن -2-)

عرضت الخطبة الماضية لخلال ثلاث في رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزلت به شدة، وهي:

- يألم ولكنه صابر راضٍ عن الله وقضائه.

- يفرع إلى الله ويأوي إليه.

- يأخذ بالأسباب لدفع القدر بالقدر.

وتعرض خطبة اليوم لحادثة موقعة مؤلمة مرت برسول الله صلى الله عليه وسلم وبأصحابه الكرام، لنقرأ فيها هذه الثلاثة، ولأعرض عليكم حكماً جليلاً استنبطها واحد من أعلام علماء المسلمين من هذه الحادثة، تنفعنا فيما نحن فيه من شدة نرجو الله تعجيل فرجها.

أما الحادثة فهي (غزوة أحد).

تعلمون ما أصاب المسلمين في أحد من هزيمة وانكسار، وحسبي أن أذكركم بالجراح التي أصابت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يقول أهل السير: رماه عتبة بن أبي وقاص بالحجارة، فوقع صلى الله عليه وسلم لشقه،

وأصيبت رباغيته اليمنى السفلى، وكلمت شفته السفلى، وتقدم إليه رجلٌ مشرك فشجّه في

جبهته، وجاء فارس عنيد هو عبد الله بن قميّة، فضرب على عاتقه بالسيف ضربة عنيفة شكا

لأجلها أكثر من شهر، إلا أنه لم يتمكن من هتك الدرعين، ثم ضرب على وجنته صلى الله عليه وسلم ضربة أخرى عنيفة كالأولى؛ حتى دخلت حلقتان من حلق المعفر في وجنته، وقال: خذها وأنا ابن قمئة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يمسح الدم عن وجهه: «أقمأك الله». وشاع خبر مقتل النبي صلى الله عليه وسلم بين المسلمين.

وفي أحد استشهاد من الأصحاب سبعون، ومثل بهم بقطع الأنوف والآذان وبقر البطون، وبقرت هند بنت عتبة كبد حمزة فلاكتها، فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها. قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم باكياً قطّ أشد من بكائه على حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه. ووضعه في القبلة، ثم وقف على جنازته وانتحب حتى نشع من البكاء - والنشع: الشهيق -.

وكان منظر الشهداء مريعاً جداً يفتت الأكباد. وانظروا الآن - أيها الإخوة - كيف تلقى النبي صلى الله عليه وسلم هذا الألم الشديد والوجع الممض والشدة الشديدة، واقرؤوا فيه هذه الثلاثة:

- يألّم ولكنه صابر راضٍ عن الله وقضائه.

- يفرع إلى الله ويأوي إليه.

- يأخذ بالأسباب لدفع القدر بالقدر.

روى الإمام أحمد في مسنده قال: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «استووا حتى أني على ربي عز وجل»، فصاروا خلفه صفوفاً، فقال:

«اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعد لما قربت.

اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك.

اللهم إني أسألك النعيم المقيم، الذي لا يحول ولا يزول.

اللهم إني أسألك العون يوم العيلة، والأمن يوم الخوف.

اللهم إني عائد بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا.

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من

الراشدين.

اللَّهُمَّ توفِّنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين.
اللَّهُمَّ قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدُّون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك.

اللَّهُمَّ قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب... إله الحق».

هذه هي الحادثة، ومع أُلها الشَّدِيد وقسوتها البالغة استنبط منها الإمام ابن قَيِّم الجوزيَّة في كتابه الفريد: (زاد المعاد في هدي خير العباد) حِكْماً جليلاً تنفع في الإجابة على أسئلة تَرُدُّ في أذهان البعض:

لماذا يمدُّ الله للظَّالِمين؟ ولماذا يمتحن المؤمنين امتحانات صعبة؟ لماذا يتأخَّر نصرُ المؤمنين؟ ولماذا يعلو أهلُ الفجور والضلال حيناً؟.

يقول ابن القَيِّم في الحكم المستخلصة من أَّحد:

■ منها: إِنَّ حِكْمة الله وسنَّته في رسله وأتباعهم جرَّت بأن يدالُّوا مرَّةً ويدالَّ عليهم أخرى⁽¹⁾، لكن تكون لهم العقابة، فإنهم لو انتصروا دائماً دخل معهم المؤمنون وغيرهم ولم يتميَّز الصَّادق من غيره، ولو انتصر عليهم دائماً لم يحصل المقصود من البعثة والرَّسالة، فاقتضت حكمة الله أن جمَّع لهم بين الأمرين ليتميَّز من يتبعهم ويطيعهم للحقِّ وما جاؤوا به ممَّن يتبعهم على الظُّهور والغلبة خاصَّة.

وهذا من أعلام أهل الحقِّ وعلى رأسهم الرُّسل، كما قال هرقل لأبي سفيان: هل قاتلتموه؟ قال: نعم، قال: كيف الحرب بينكم وبينه؟ قال: سجالٌ؛ يُدالُّ علينا المرَّة ونُدالُّ عليه الأخرى، قال: كذلك الرُّسل؛ تُبتلى ثمَّ تكون لهم العقابة.

■ ومنها: استخراج عبوديَّة أوليائه وحزبه في السَّراء والضَّرَّاء، وفيما يُحبُّون وما يكرهون، وفي حال ظفَرهم وظفَر أعدائهم بهم، فإذا ثبتوا على الطَّاعة والعبوديَّة فيما يُحبُّون وما يكرهون، فهُم عبيده حقّاً وليسوا كمَّن يعبد الله على حرفٍ واحد من السَّراء والنِّعمة والعافية.

■ ومنها: أَنَّهُ - سبحانه - لو نصرهم دائماً وأظفَرهم بعدوِّهم في كلِّ موطن، وجعل لهم التَّمكين والقهر لأعدائهم أبداً لطغَّت نفوسُهم وشتمخت وارتفعت، فلا يُصلح عباده إلَّا السَّراء

⁽¹⁾ الإدالة العَلْبة، يقال: أُدِيل لنا على أعدائنا، أي: نُصِرنا عليهم وكانت الدَّولة لنا. [لسان العرب، مادة (دول)]

والضَّراء، والشَّدة والرَّخاء، والقبض والبسط، فهو المدبِّر لأمر عباده كما يليق بحكمته، إنَّه بهم خبيرٌ بصير.

■ ومنها: إنَّه إذا امتحنهم بالغلبة والانكسار والهزيمة ذلُّوا له وانكسروا وخضعوا، فاستوجبوا منه العزَّ والنصر، فإنَّ خلعة النَّصر إنما تكون مع ولاية الدُّلِّ والانكسار لله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: 123]، وقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: 25].

فهو - سبحانه - إذا أراد أن يُعزَّ عبده ويَجْبُرَه ويتصرَّه كسره أوَّلًا، ويكون جبرُه له ونصرُه على مقدار ذلِّه وانكساره لله.

■ ومنها: إنَّه سبحانه هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لم تبلَّغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيها إلَّا بالبلاء والحنة، فقيَّض لهم الأسباب الَّتِي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وقَّعهم للأعمال الصَّالحة الَّتِي هي من جملة أسباب وصولهم إليها.

■ ومنها: أنَّ النفوس تكتسب من العافية الدَّائمة والنَّصر والغنى طغياناً وركوناً إلى العاجلة، وذلك مرض يعوقها عن جدِّها في سيرها إلى الله والدَّار الآخرة، فإذا أراد بها ربُّها ومالكها وراحمها كرامةً قيَّض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواءً لذلك المرض العائق عن السَّير الحثيث إليه، فيكون ذلك البلاء والحنة بمنزلة الطَّبيب؛ يسقي العليل الدَّواء الكريه ويقطع منه العروق المؤلِّمة لاستخراج الأدواء منه، ولو تركه لغلبته الأدواء حتَّى يكون فيها هلاكه.

■ ومنها: أنَّ الشَّهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه، والشُّهداء هم خواصُّه والمقرَّبون من عباده، وليس بعد درجة الصِّدِّيقية إلَّا الشَّهادة...، ولا سبيل إلى نيل هذه الدَّرجة إلَّا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو.

■ ومنها: أنَّ الله سبحانه إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقَّهم قيَّض لهم الأسباب الَّتِي يستوجبون بها هلاكهم ومحقَّهم؛ ومن أعظمها - بعد كفرهم - بغْيهم وطغيانهم، ومبالغتهم في أذى أوليائه ومحاربتهم وقتالهم والتسلُّط عليهم، فيتمحَّص بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محققهم وهلاكهم، وقد ذكر سبحانه وتعالى ذلك في قوله:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ * إِنَّ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ

الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ
اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿﴾ [آل عمران: 139-141]

أيها الإخوة:

هذا شيءٌ من هديهِ صلى الله عليه وسلم في الشَّدائدِ والمحنِ:

- (1) يَأْلَمُ وَلَكِنَّهُ صَابِرٌ رَاضٍ عَنِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ.
 - (2) يَفْزَعُ إِلَى اللَّهِ وَيَأْوِي إِلَيْهِ.
 - (3) يَأْخُذُ بِالْأَسْبَابِ لِدَفْعِ الْقَدَرِ بِالْقَدَرِ.
- وهذه ثمان حِكَمٍ مِنْ قَضَائِهِ جَلَّ جَلَالُهُ الْبَلَاءُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.
- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الزَّرْعِ؛ لَا تَزَالُ الرِّيحُ تُمِيلُهُ، وَلَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ يَصِيبُهُ الْبَلَاءُ.. وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ شَجَرَةِ الْأَرْزِ؛ لَا تَهْتَرُ حَتَّى تَسْتَحْصِدَ» [أخرجه مسلم]

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

والحمد لله رب العالمين